المسيحية فى مخطوطات البحر الميت

كما سبق القول أسس مجتمع (الميثاق الجديد) فى قمران أخوة متحدة فى الهدف العام وهو القداسة والطهارة والحق وكذلك الولاء والاخلاص لمعلم الاستقامة؛ وكانوا واعين لدورهم كفرسان لحقبة المسيح التى تقترب منهم. وكانوا يطلقون على أنفسهم عددًا من الألقاب من بينها (النخبة)، (الفقراء)؛ (هؤلاء الذين اختاروا الطريق)، وقد اختار أعضاء هذه الجماعة نمطا تكريسيا فى الحياة. وقد انغمسوا فى نظام للتطهر البدنى والروحى يشبه إلى حد كبير نظام الطوائف المعمدانية المعاصرة الآن؛ واستثمروا الوجبة الجماعية العامة على نحو ما جاء فى سفر الرؤيا وهو ما يشبه (العشاء الربانى) فى المسيحية الباكرة. والحقيقة أن هناك وجوه شبه كثيرة فى أساسيات (العهد الجديد) موجودة فى عقائد قمران الخاصة بالمسيح والقدر المسبق والخلاص كما أن هناك تشابهًا فى أمور العبادة والتنظيم الكنسى.

ولقد حدا هذا النوع من التوافق ببعض الثقاة إلى القول بأن أسس المسيحية وعقائدها قد أخذت إلى حد كبير وفى كثير من جوانبها من فكر الإيسينيين وممارساتهم. وقد أثار البروفيسور أ. ديبونت – سومر فى كتاباته الباكرة (١٩٥٤، ١٩٥٦) قدرًا كبيرًا من الجدل داخل وخارج الأوساط الأكاديمية عندما أكد أن عيسى المسيح لم يأت بجديد فى دينه المسيحى بل كان فى كثير من الجوانب استنساخًا لـ (معلم الاستقامة)، المسيح المختار من عند الله. ولو كان ديبونت – سومر على حق فى مدخله هذا فإن أركان العقيدة المسيحية ربما تهتز اهتزازا عميقًا إذا أدركنا أن طائفة دينية يهودية قبل المسيحية بزمان كانت لديها عقيدة وعبادة تشبه العقيدة والممارسة المسيحية. وفى هذه الحالة فإن المسيحية يجب أن تتخلى عن إدعاءاها بالجدة والتفرد فهى لم تأت بجديد ويجب أن تعترف بأن عقائدها الأساسية ومعاييرها

الأخلاقية وأشكال العبادة وأنماط التنظيم قد استقيت من ممارسات دينية سابقة عليها كتلك التى وجدت بين الإيسينيين. ولقد شايع إدموند ويلسون البروفيسور ديبونت – سومر فى استنتاجاته إلى حد كبير وقال عبارة شديدة الوقع مؤداها أنه من المفيد للحضارة الإنسانية أن نرى المسيحية كحلقة فى المجرى الأكبر للتاريخ البشرى بدلاً من أن نراها عقيدة ووحيًا إلهيًا.

وفى أية دراسة متأنية للعلاقة بين مجتمع قمران وأطروحات مسيحية العهد الجديد لا بد من الوقوف بداية على بعض الحقائق والقضايا الأساسية. فقد كانت هناك لسوء الحظ قدر كبير من الدعاية لبعض الجوانب التى كشفت عنها مخطوطات قمران قبل القيام بالدراسة المتأنية الواعية والمنظمة لكل المخطوطات الممكنة التى أغلتها كهوف البحر الميت. وكان أحد الأسباب الكامنة وراء الجدل بل اللغط الذى حدث فى البداية والذى تعلق أصلا بقضية تأريخ تلك المخطوطات هو ببساطة شديدة أن الجانب الأكبر من المخطوطات المكتشفة لم يتح لأسباب غير معلومة، لكل الباحثين الراغبين ولفترة طويلة. وكانت النتيجة أن ما تم التوصل إليه من حقائق لم يكن إلا جانبًا صغيرًا من الصورة وجزءًا واحدًا من القرينة الكاملة، مما خلف الصعوبات أمام هؤلاء الباحثين الذين لم تكن لهم علاقة مباشرة بالاكتشافات أو العمل مع المخطوطات المكتشفة.

كذلك فإنه من الخطورة بمكان أن نناقش علاقة المسيحية بمجتمع قمران على أساس الاتفاق السطحى بين الاثنين لأن هذا يؤسس قوالب منطقية صورية غافلة تزعم أنه إذا كان عيسى والمسيحية قد جاءا بعد (معلم الاستقامة) ومجتمع طائفة قمران ـ من الناحية الزمنية، ـ وإذا كانت وجوه الاتفاق والتشابه بينهما قوية فمن الطبيعى أن يكون اللاحق قد أخذ من السابق ومن ثم فإن المسيحية تكون قد أخذت واستقيت من يهودية قمران ومن ثم تلغى من الوجود.

وتأسيسًا على ذلك فإن المنطق يقتضى منا أن نفحص بعض المفاهيم والممارسات المشتركة المتشابهة بين جماعة قمران والكنيسة المسيحية الباكرة. وربما كانت أهم نقطة التقاء وربما كانت النقطة الأساسية التى نالت الجانب الأكبر من اهتمام

الباحثين هى تلك المتعلقة بشخص وعمل (المسيح). طبقًا لما جاء فى مخطوطة قمران ١ الخاصة بـ (دليل النظام) فإنه كان على أعضاء الجماعة أن يعكفوا على عقائدهم والعمل بها فى الحياة العامة المشتركة إلى أن يأتى النبى وأتباع قارون وإسرائيل الممسوحون بزيت البركة. وقد رتبت مخطوطة (القرينة المسيحية) التى جاءت من الكهف ٤ اقتباسات (العهد القديم) بطريقة تشير إلى أن الطائفة تتوقع ظهور ثلاثة أعلام لهم شأنهم: نبى، قسيس، وشخص عادى مكرس يأتون فى آخر العمر. وكان النبى هو ذلك الذى تنبأ به سفر تثنية الاشتراع. وكان مسيح قارون شخصية قسية، بينما مسيح إسرائيل فقد عرف بأنه مسيح داود وكان شخصية مدنية والذى ربما كان يقود جيوش الطائفة فى معركة ضد أعدائها (أبناء الظلام). وعلى أية حال فإن طائفة قمران انتظرت تحقق النبوءة المتعلقة بمجيء المسيح فى إطار الشخصيات الثلاثة المستقلة.

أما توقع المسيح من وجهة نظر النصارى على الناحية الأخرى فقد فسرت نبوءة العهد القديم كاملة على أساس مختلف على أساس شخص واحد متفرد يضم فى شخصه: النبى والقسيس والملك. وكانت أحاديث العهد الأولى كلها تشير إلى شخص عيسى المسيح على أنه النبى الذى طال انتظاره منذ موسى، بينما يوحنا المعمدان عندما دعى لكى يقدم نفسه مع النبى رفض وأنكر علانية مجيء المسيح فى زمن المسيح وهذا واضح من تعاليم الكتاب أن (إلياس يجب إن يأتى أولاً) وقد ذكر أن عيسى نفسه هو الشخصية النبوية المقصودة.. وتعج روايات الإنجيل بالعديد من الإشارات إلى الطبيعة الملكية للمسيح المنقذ المخلص للبشرية وإلى المملكة التى سيحكمها فى الأبدية – ولقد خصص سفر كامل فى العهد الجديد (رسالة إلى اليهود) للحديث المفصل عن الطبيعة القسية لرسالة وعمل المسيح على ضوء العهد القديم. وفى فكر الكنيسة البدائية فإن المسيح الذى – فى اعتقادها – صلب ورفع وصعد إلى السماء قد حقق فى شخصه كل ما ذكر فى العهد القديم وما تحدث به الأنبياء عن (المسيح).

وكان التفسير الذى قدمه زهاد قمران لـ (العبد وسيط الوحى) وفى سفر عيسياه

ذا أهمية خاصة لأن هذا السفر يشير إلى أن الخادم فى كلتى الحالتين كان علما محسوسا ولم يكن شخصا معنويًا. ومن وجهة النظر السابقة كان مجتمع قمران نفسه تحت قيادة مجلسه المكون من ثلاثة قساوسة وإثنى عشر مدنيا يتبنى أو يتضمن فكرة الخادم طالما أن شهادتهم المركبة وإقراراهم وأعترافهم بدين رب إسرائيل كانت إيذانا بدخولهم إلى العصر المسيحى. وفى مواضع مختلفة من مخطوطة (دليل النظام) فإن هذه الجماعة كانت تنظر إلى نفسها باعتبارها شعب الله المختار التى اختارها لحمل الرسالة الأبدية وهكذا يوازى هذا المفهوم مفهوم العبد الذى عن طريقه يدخل الله وإسرائيل فى اتحاد أبدى.

وباعتبار العبد فردًا بشرًا ملموسًا فإنه يتطابق مع المسيح فى عدة حالات. وهناك إشارة فى (دليل النظام) إلى الوقت الذى سوف يطهر فيه الله كل أعمال البشر وينقيهم ويساعدهم على بلوغ المعرفة الكاملة العظمى، وهو ما يعكس فيما يبدو فكر عيساياه وهو فيما يبدو التفسير المسيحى لإحدى العقبات التى يواجهها (العبد) على نحو ما جاء فى مخطوطة عيساياه.

وعند هذه النقطة لا يمكننا أن نقاوم فكرة أن أرباب طائفة قمران نظروا إلى المسيح والعبد الذى يقاسى على أنهما شخص واحد. وقد جرت محاولات عديدة من جانب باحثى عصرنا للتوصل إلى أن (معلم الأستقامة) هو المسيح بذاته وأن يحددوه عن طريق شخصيات إنجيلية مثل يوحنا المعمدان أو عيسى المسيح. وقد رأى ديبونت – سومر أن المسيح ليس إلا استنساخًا من (معلم الاستقامة)، وكانت حجته فى ذلك أن شرح حبقوق فى إشاراته إلى الوحشية التى تخطت الكاهن الوغد كان يعنى أن معلم الاستقامة كان هو الضحية سيء الحظ، وهو تعسف فى التفسير وغير طبيعى. وكان أليجرو هو الآخر قد تبنى فكرة أن (معلم الاستقامة) لقى نهاية مؤلمة استنادًا إلى قطعة من شرح ناحوم أغلها الكهف رقم ٤ وحيث ورد فى هذا النص الموجز أن "معلم الاستقامة قد قتل على يد شخص أشير إليه باسم (أسد الغضب) وقد حدده أليجرو على أنه (الاسكندر جانيوس ١٠٣ – ٧٦ق.م) وكانت الإشارة فى شرح ناحوم تقول بان الاسكندر جانيوس كان يعلق الناس أحياءً فى

إلماحة إلى الوحشية والبربرية التى مارسها سنة ٨٨ق.م ويستمر الشرح فيقول بأن (معلم الاستقامة) لقى نهايته مصلوبًا فى تلك السنة.

وعلى أية حال فليس هناك قرينة مادية ملموسة أو حتى نقلية تقول بأن الأمر كان على هذا النحو وحيث لم تصلنا معلومات حتى الآن حول الطريقة التى مات بها (معلم الاستقامة). ومن المؤكد أنه ليس هناك أهمية بالنسبة للاهوت الخلاصى من وراء الطريقة التى مات بها (معلم الإستقامة) ولذلك لم تشر إليها الطائفة وليس هناك فى كتابات الطائفة ما يدل على أن معلم الاستقامة سوف يبعث بعد وفاته فى فجر الحقبة المسيحية ليكون ذلك دليلاً على ما سيحدث للمسيح. ولا بد من التأكيد هنا على أن معلم الاستقامة لم يزعم ولم يدع أنه المسيح وإذا كان هناك فى لقبه ما يشير إلى وظيفة أو دور دينى محدد فهو بكل تأكيد لا يشير إلى شخص تاريخى بعينه. وليس هناك أبدًا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن (المعلم) هو عيسى أو يوحنا المعمدان.

ومهما يكن من أمر فإن من المستحيل بأية حال من الأحوال أن يكون يوحنا المعمدان على صلة من أى نوع بمجتمع قمران أو باية جماعة دينية مناظرة. وطبقًا لما جاء فى إنجيل لوقا فإن يوحنا المعمدان قد تنسك منذ الصغر، وقد غادر بيته فى يهوذا وهو صبى وتوجه إلى الصحراء حيث عاش "إلى يوم عودته إلى إسرائيل" وظهر بعد ذلك كنبى زاهد متنسك وحيث نادى، ودافع ومارس التطهر والتعميد للخلاص من الذنوب والآثام على ضوء القرب من المملكة. وكانت رسالة التطهر والتعميد التى حمل لواءها يوحنا المعمدان قد عرفت طريقها قبله إلى مجتمع قمران وكانت شعيرة أساسية من شعائر هذا المجتمع الذين أطلقوا على أنفسهم صفة (هؤلاء الذين يتطهرون من الذنوب). والذين كانوا يعيشون فى "ميثاق من التوبة والطهارة" وكانت العقيدة التى نادى بها يوحنا المعمدان تقول بأن التطهر الذى يعقب التوبة يجب أن يأتى قبل التطهر بالماء أو التعميد. هذا الأمر بحذافيره كان من الخصائص التى تميز عقائد مجتمع قمران فى هذا السياق.

وقد وصف يوحنا المعمدان نفسه بأنه "صوت يصرخ فى البرية"، وبينما يوحنا المعمدان كان قد تعمد بالماء فإن المسيح نفسه كان يعمد بالروح القدس والنار.

وكان يوحنا المعمدان يعتبر نفسه إرهاصة أو مقدمة للعصر المسيحى، بالضبط كما فعل أعضاء مجتمع قمران. وقد فسر استعداداته بالإقامة المؤقتة فى الصحراء وحياة التنسك والزهد وهو نفس ما نصادفه فى سلوك قمران.

وتذكر المصادر الثقاة أن يوحنا المعمدان ولد فى مكان لا يبعد كثيرًا عن مستوطنة قمران وأن مسألة تبنيه وهو طفل يمكن تفسيره بمعطيات مخطوطة عيسایاه قمران ١ والتى وردت فيها نصوص تسمح للطائفة بإلحاق الأطفال وتدريبهم ثم ضمهم إلى عضوية المجتمع وإدماجهم فى حياة الكبار من الأعضاء. وهذا الأمر هو أمر عادى إذا كان المجتمع هو مجتمع إيسينى بطبيعته على نحو ما شرحناه سابقًا.

وأيًا كانت علاقة يوحنا المعمدان المبدئية بمجتمع قمران فإنه لم يكن بكل تأكيد عضوًا فى هذا المجتمع عندما بدأ حياة التنسك، إلا أنه يبدو أن مسألة التعميد والتطهر قد تأثر فيها بمجتمع قمران وحيث كانت كما ذكرت مسألة الوضوء والاغتسال سلوكًا شعائريًا دائمًا وعنصرًا أساسيًا من عناصر الحياة الدينية فى قمران، ولا يوجد فى كتابات مجتمع قمران ما يدل على أنهم كانوا يطلبون من المبتدئين الملتحقين التعميد للتطهر والتوبة وذلك لغفران الذنوب.

وبينما كانت شعائر قمران تشترك فى كثير من الأمور مع شعائر التطهر اليهودية المعاصرة لها فإن التعميد الذى نادى به يوحنا المعمدان كان فى حقيقة الأمر مطلبًا أساسيًا للتطهر فى إسرائيل استعدادًا لمجيء ذلك الشخص الممسوح بزيت البركة. وفى هذه الحالة فإن من المحتمل أن تكون عملية التعميد هى حدث فردى فى حياة وتجارب معظم الذين تعرضوا له على العكس من الوضوء والإغتسال المتواصل فى مجتمع قمران. وثمة اختلاف أخير بين يوحنا المعمدان وأعضاء مجتمع قمران يكمن فى أنه على الرغم من أن أهل قمران كان من بين أهدافهم المعلنة تمهيد الطريق الذى سيسير فيه المسيح وهى المهمة التى طوعوا أنفسهم لها بقوة، على الرغم من هذا فإنه لم يكن لهم أبدًا ميزة التعرف على المسيح الحقيقى ولا استخدموا تكريسهم كأداة لمجيئه. ولكن على الجانب الآخر فإن يوحنا على الرغم من أنه لم يخطر ولم

يعرَّف بهوية المسيح قد اختاره الله ليفتتح الفترة المسيحية من خلال تعميد المسيح عيسى وهو الإجراء الذى يبدو أنه جعل الوعى المسيحى بالمسيح تحت دائرة الضوء.

وتؤكد بعض المصادر الثقاة أننا يجب أن نحتاط ونحن نقارن كتابات قمران بالأقوال المسجلة على لسان المسيح عيسى فوجوه الاتفاق والتشابه يجب أن تفهم فقط على ضوء أن عيسى قد اعترف وقبل بأحاديث الوحى التى وردت فى العهد القديم على نحو ما فعل مجتمع قمران نفسه. وهو نفس الاتجاه الذى نجده فى كتابات الربابنة التى نجد فيها كثيرًا جدًا من التعاليم الأخلاقية التى تناظر التعاليم التى قال بها المسيح نفسه. وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة نقاط التقاء مثيرة وممتعة بين مخطوطات قمران وتعاليم عيسى المسيح ففى إنجيل متى وضع المسيح إجراء ثلاثى المراحل لتأنيب وتوبيخ المنحرف من الإخوان: أولها التوبيخ المباشر للشخص نفسه وثانيها التوبيخ أمام شهود وثالثها التوبيخ أمام الكنيسة كلها. وفى مخطوطة (دليل النظام) كان أعضاء الجماعة ينصحون بألا يوبخوا أخاهم فى حال الغضب أو محاكمة شخص أمام المجتمع كله قبل توبيخه أمام شهود.

وهناك بعض الجمل أو العبارات المتعلقة بالآخرة فى كتابات قمران شبيهة بتلك التى استخدمها المسيح فهناك على سبيل المثال فقرة فى (دليل النظام) عن حال الخيرين المستقيمين فى اليوم الآخر، وأن كل آثامهم وخطاياهم سوف تغتفر ومن ثم يمكنهم تأمل نور الحياة؛ وهذا الكلام شبيه بما قاله فى هذا المقام يوحنا المعمدان. وكانت معتقدات أعضاء جماعة قمران فيما يتعلق بعقاب الأشرار الأوغاد وخلاص المختارين فى يوم الحساب النهائى للفضائل الإنسانية، هذه المعتقدات كانت شبيهة بفكر الإنجيليين وغيرهم من كتاب العهد الجديد حول قضايا الآخرة وكما رأينا من قبل فإن الطائفة فى قمران وضعت أهمية قصوى على الجوانب المسيحية فى نبوة العهد القديم حيث فسر سفر (عيسياه) بطريقة تشى بأن العبد الذى يعانى هو والمسيح شخص واحد. وهناك فقرة فى مخطوطة (دليل النظام) تتحدث عن مجلس الإثنى عشر يستغفرون للمخطئين عن طريق الأعمال الصالحة وكحياة الزهد

والتنسك. هؤلاء الأثنى عشر (حواريو عيسى) إنما يشبهون مجتمع قمران كله الذى يمثل (العبد) الصالح. وفى مواضع مختلفة من مخطوطة (دليل النظام) عبارات تكشف عن أن جماعة قمران تنظر إلى نفسها باعتبارها (شعب الله المختار)، (الميثاق الخالد الأبدى) وهو ما يفيد فى "ربط الله بشعبه".

ويرى بعض الثقاة أن توقع (الحواريون الإثنى عشر أتباع المسيح) هو ما دعا جماعة قمران إلى تشكيل مجلس الجماعة من ثلاثة قساوسة واثنى عشر مدنيا، ولم تحدد وظائف هؤلاء الاثنى عشر بوضوح وربما كانوا مجرد تنفيذيين لإدارة شئون الجماعة الدينية ويرى نفس هؤلاء الثقاة أن أى تعسف فى خلق علاقة بين هذا الترتيب وتنظيم الحواريين أتباع المسيح يجب أن يؤخذ بحذر شديد لأنه محض اتفاق وليس نقلا عن. فقد يكون الإثنان قد احتذيا الرقم التقليدى المرتبط بالقبائل الإثنى عشر اليهودية (الأسباط) الأسرائيلية القديمة، ومن ثم فإن أى تشابه بين مجلس جماعة قمران وحوارى المسيح الإثنى عشر سيكون محض صدفة. وربما كان أهم من ذلك فيما يتعلق بتنظيم الكنيسة البدائية بأساقفتها وقسيسيها هو وجود – رقباء أو مشرفين وهو المعادل أو المقابل للأساقفة إلى جانب الاثنى عشر مدنيا الذين كانوا يساعدون القساوسة الثلاثة وهو ما يقابل القساوسة فى الفترة الرسولية الباكرة. لقد كان رئيس مجتمع قمران شخصًا مكرسًا متفرغًا لواجباته باعتباره الأب الذى يحب أبناءه (أتباعه) ويذود عنهم وقت الشدة والضيق، والمتاعب الشخصية، ويبدو أن فكرة الراعى التى انطبقت على الرقباء والقادة الدينيين كانت موجودة بالفعل فى الكتاب المقدس العبرى (العهد القديم)، وقد أعطاهم المسيح أهمية خاصة عندما تحدث عن نفسه باعتباره (الراعى الصالح) بل وأكثر من هذا، عندما كان قادة وزعماء قمران أحسن من يدافع عن الشريعة (القانون) وأحسن من يعلم الشعائر والتقاليد والعادات والأسرار الدينية للطائفة وكان الاتباع بعد عيد الحصاد شهود عيان على شخصية فريدة هو عيسى المسيح (ابن الله!!) الذى بموته النيابى على الجمجمة (الموضع الذى صلب فيه) جلب الخلاص للجميع، لقد مات نيابة عن الجميع. لقد كانوا حسبما قال القديس بولس قساوسة المسيح ووكلاءه، وكلاء الأسرار السماوية المقدسة يمرون بحياة روحية ذات طبيعة شخصية عميقة ومقدسة

لا نجد لها نظيرًا أو مقابلاً فى مخطوطات البحر الميت. ومن الخليق بالذكر أن وظائف الأساقفة فى الكنسية الباكرة اختلفت اختلافًا كبيرًا عن تلك الوظائف التى نص عليها (دليل النظام) فى مخطوطات جماعة قمران والتى كان يقوم بها رقباء ذلك المجتمع.

هناك بالقطع نقاط التقاء واضحة فى الطريقة التى أدارت بها طائفة قمران المال العام والممتلكات المشتركة للمجتمع وطريقة تشاطر الممتلكات فى الأيام الأولى للكنيسة المسيحية. كذلك كان مفهوم الإخوة أو الرابطة الدينية موجودا لدى طائفة قمران فى كتاباتهم وممارساتهم ووجد أيضًا فى كتابات العهد الجديد. لقد كان مطلوبًا من أعضاء طائفة قمران أن يعيشوا معًا فى وئام وتواضع ورغبةً وحب، يأكلون ويتعبدون ويتدارسون معًا. وعندما يدخل الواحد منهم إلى الطائفة كان عليه أن يسلم ثروته المادية بل والعقلية إلى الطائفة، وهو نفس الأسلوب الذى كان موجودًا لدى الإيسينيين من جهة والمسيحيين الأوائل من جهة ثانية. وحيث كانت ممتلكاتهم الشخصية توضع فى عهدة المشرف العام على الممتلكات. ولم تكن ممتلكات المرشحين الجدد للطائفة تضم للخزينة العامة إلا بعد أن يتم قبولهم أعضاءً عاملين فى الجماعة؛ وكانت ممتلكاتهم تودع كأمانة فقط قابلة للرد وإعادتها إليهم إذًا لم يقبلوا، ولكنهم عندما يجتازوا الفترة الانتقالية والاختبارات بعد السنة الثانية من الترشيح تصبح ممتلكاتهم جزءًا من أملاك الجماعة وتستخدم فى الغرض العام.

وعلى الجانب الآخر المقابل كان المسيحيون الأوائل ينخرطون فى إخوة واحدة يجمعهم الوئام والحب ولم يكونوا قد انقسموا شيعًا وأحزابًا بعد، على نحو ما أحب أعضاء مجتمع قمران بعضهم بعضًا. وقد وصف المؤمنون المسيحيون فى أعمال الرسل بأنهم (قلب واحد نفس واحدة) وتنازلوا عن ممتلكاتهم الخاصة الشخصية لصالح المجموع، واشتركوا معا فى المال المجموع ووزعوه طبقًا للاحتياجات الشخصية الفردية. ورغم درجة التشابه تلك هناك بعض الاختلافات والتباينات الهامة على الأقل فى الممارسات الدينية بين طائفة قمران والمسيحيين الأوائل ففى المقام الأول فإن هؤلاء الذين كان يسمح لهم بالإنضمام إلى جماعة قمران كانوا

يجلبون معهم فقط تلك الممتلكات الشخصية التى يمكن نقلها إلى الجماعة، بينما المسيحيون الأوائل على ما ذكر فى الفصول الأولى من أعمال الرسل كانوا يبيعون أراضيهم وبيوتهم للإسهام بثمنها فى الخزينة العامة للكنسية. وكذلك فإن هؤلاء الذين فعلوا ذلك من النصارى كانوا يفعلونه تطوعًا وعن طيب خاطر كلية ووهبوا ما فعلوه لصالح العمل الاجتماعى لفقراء وأرامل أورشليم فى حين أن أعضاء طائفة قمران استخدموا مصادرهم المالية لصالح أعضاء الجماعة ممن لا يقدرون على العمل. ومن جهة ثالثة فإن الدوافع التى حكمت التنازل عن الأموال والممتلكات فى قمران كانت جزءًا هامًا ومطلقًا من طبيعة الطائفة نفسها، بينما المسيحيون الأوائل وزعوا ثرواتهم على كل محتاج محتذين فى ذلك فقر وكرم المسيح عيسى وإنكاره للذات.

ولقد كشفت الحفريات الأثرية فى قمران عن قرائن هامة حول التطهر البدنى فى حياة مجتمع قمران؛ ففى منطقة تشح فيها مصادر المياه، بل وفى بعض الأحيان تنعدم تلك الأمدادات نجد مجتمع قمران يعطى أهمية خاصة للتطهر والإغتسال ويجعله شعيرة أساسية من شعائر الممارسات الدينية وجزءًا هامًا من حياة المجتمع العامة الجماعية. وربما أنبثقت هذه الشعيرة من الاعتقاد بأن الإخوان يحتذون أثر إسرائيل الحق والنموذج الذى كانت خطاياه تمحى بالخضوع الكامل لأوامر الله. ومن ثم فقد كانوا هم وحدهم دون معاصريهم الذين يقدرون الأهمية الروحية للتطهر البدنى وشعيرة التعميد، ومع الإنغماس فى هذا التطهر فإن أعضاء مجتمع قمران يشعرون بأنهم حققوا قدسية الروح وقوة السير بلا ندم على خطوات توراة الله؛ ولكن حقيقة أن الشخص الذى يشارك فى الاغتسال والتطهر البدنى الجماعى، ليس معناه أن يحقق التطهر والنقاء الروحى والسمو الأخلاقى، لأن التطهر والنقاء الروحى لن يتأتى إلا بعد التخلص من الدنس النفسى والآثام، وحلف القسم بالولاء للمجتمع وذلك حسبما جاء فى مخطوطة (دليل النظام). ولأن روح الله حقيقة هى التى تطهر وتنظف الشخص من الخطيئة والظلم فإن قداسة الفرد أو بالأحرى بلوغه مرحلة القداسة التى هى التطهر الكامل، هى عملية تدريجية لا

تكتمل إلا بفعل إلهى ولطف من الله عند القضاء. وكان التعميد عن طريق الروح القدس لله فى اعتقاد الجماعة هو خاص بالمسيح وحده حتى يتمكن من التنبؤ بما تضمره قوى الشر وكذلك كان التعميد لأتباع وحواريى المسيح طالما كانت دعوة المسيح تنتشر بين كثير من الأمم.

وليست هناك إشارة فى كتابات مجتمع قمران إلى الطريقة أو الأسلوب الذى كان يتم به التطهر والإغتسال البدنى وشعائره. فإذا ما توافر الماء بالقدر الكافى كان الوضوء والاغتسال يتم بطريقة موحدة صحيحة طبقًا للقواعد المعمول بها فى المجتمع، وإن كانت تلك القواعد والخطوات والتعليمات المحددة لم تسجل فى اى من كتابات الطائفة؛ وربما كانت تلك الحرية فى طريقة الوضوء والإغتسال لها نظائرها بين طوائف التعميد المعاصرة فى فلسطين، لأن التعميد كان شائعًا وله حجيته سواء تم عن طريق سكب الماء أو الإنغمار فى الماء أو بأية طريقة أخرى. وربما كان الفارق الرئيسى بين تطهرات قمران وتعميد المسيحيين يكمن فى التردد (عدد المرات والفترات بينها) الذى يتم به العمل والطبيعة التقديسية الخاصة للشعيرة المسيحية؛ ذلك أنه بين مجتمع قمران كانت شعيرة الاغتسالات حدثا عاما ولم تكن قاصرة على طقوس بعينها؛ وبينما هى لدى مجتمع قمران قصد بها أن تكون رمزًا على عملية التطهر الإلهى داخل الفرد، إلا أنها فى المسيحية كانت شعيرة طقسية تمارس مرة واحدة بـ (اسم الثالوث الأقدس). كما أن تطهيرات واغتسالات أعضاء مجتمع قمران لم تكن يقصد بها أى شخص أو أشخاص آخرون وإنما فقط يقصد بها الفرد الذى يقوم بها، ومن ثم فإن فكرة تعميد كل أمة باسم الثالوث الأقدس لم تكن إلا فكرة إنجيلية، غريبة تمامًا عن فكر مجتمع قمران.

وكان من بين الشعائر الرئيسية التى انتشرت بين مجتمع قمران والتزمت بها التزامًا صارمًا تناول "الوجبة الجماعية المقدسة" التى جرى تحديدها ووصفها فى مخطوطة (دليل النظام) بشيء من التفصيل؛ وحيث كان من مقتضيات النظام أن يتناول الجميع وجبتى الغداء والعشاء معًا، وبعد أن يجتمع الكل قبل الطعام يبارك القسيس الخبز والنبيذ وبعدها يبدأ الكل فى تناول الطعام. وفى مخطوطة (عيسایاه أ

قمران ١) نحس بطبيعة المسيح فى الوجبة وذلك باقحام شخصية (مسيح الله) داخل الجماعة والذى يبارك مرة أخرى الطعام بما يكمل تبريكات القسيس. ويرى الثقاة أن هذه الشعيرة ربما تكون قد برزت كتوقع لوليمة المسيح التى تنبأوا بحدوثها مع فجر العصر الجديد. مثل هذه الوليمة كان ولابد أن يحضرها مسيحيو داود والقساوسة من عصرى وحكماء إسرائيل وحفل المؤمنين.

وكانت إجراءات الطعام شبيهة إلى أبعد حد مع الوصف الذى قدمه جوزيفوس لوجبة الإيسينيين المقدسة، تلك التى يسبقها قيام الإيسينى بالاستحمام بالمياه الباردة ثم ارتداء العباءات البيضاء النظيفة وهى العادة التى ربما تكون قد تمت استعارتها أو اقتباسها من الدين المصرى القديم، ثم يقومون باحتلال مواقعهم فى قاعة الطعام كل فى مكانه ومجلسه المحدد وبعد وضع الطعام وقبل الأكل يقوم القسيس بمباركة الطعام ثم يبدأ تناول الأكل؛ وبعد الانتهاء من الأكل يختتم القسيس الوجبة بالدعاء والتبريك ثم ينصرف الجميع. هذا الإجراء يحدث مع وجبة الغداء ووجبة العشاء. وطبقًا لما قاله جوزيفوس كان هذا الإجراء هو نسخة أو صيغة الإيسينيين لشعيرة الوليمة فى المعبد.

وتلح علينا المصادر الثقاة فى أن شعيرة الوجبات العامة الجماعية عند الإيسينيين ومجتمع قمران هى النموذج السلف المقابل والمناظر للإجراء المسيحى فى (العشاء الربانى) وحيث يبدأ بكسر أو تقطيع الخبز بالطريقة البدائية والذى طبقا لأوصاف (الكورنثيين ١) يأخذ شكل الوجبة الجماعية العامة والتى كان يتصدرها أو يرأسها القائد أو الزعيم ثم يعقبها احتفال (المجمع المقدس) وحيث يقوم المحتفى بمباركة الخبز والنبيذ. ومن الجلى أن شعائر كل من مجتمع قمران والمسيحيين تنطوى على خصائص مسيحية وخصائص ما جاء فى سفر الرؤيا، بينما ارتبطت فكرة الوليمة المسيحية فى نهاية العمر بالمسيح فى العشاء الأخير والذى وعد فيه اتباعه بأنهم سوف يأكلون ويشربون على مائدته فى مملكته القادمة.

وثمة انعكاس غريب للقواعد الإجرائية المسجلة فى مخطوطة (دليل النظام قمران ١) يمكن أن نراه فى الحادث الذى وقع مباشرة بعد أن أعلن المسيح أن واحدًا سوف

يخونه وفى مفاجأة مدهشة أومأ بيتر (بطرس) إلى الحوارى المتكئ أو المستند إلى (صدر عيسى) وطلب إليه أن يسأل المسيح تأكيد شخصية المذنب. والآن فإن أعضاء طائفة قمران عندما يكونون مجتمعين فى جلسة عامة كانوا مضطرين لاتباع إجراء محدد فى الحديث بحيث تكون مقاطعة الخطاب مخالفة وذنب مثلها فى ذلك مثل التحدث فى غير دوره. وهكذا فإنه على ضوء هذه الممارسة يبدو أن يوحنا المعمدان هو الأكبر سنًا وله الأولوية بل كان الوحيد الذى له الحق فى توجيه الأسئلة التى يسألها من هم دونه من الأعضاء بالجماعة. وعلى هذا الأساس فإنه من الواضح أنه مهما تكن الأولوية فإن بطرس (بيتر) لم يكن له الحق فى ممارسة الأولوية فلم يكن الأفضل أو الأعلى مرتبة بين الحواريين فى ذلك الوقت. وتذكر المصادر أن مسألة الأسبقية كانت مثار نوع من النزاع فى تلك المناسبات طالما بدأت المجموعة تتعارك حول السيادة والأسبقية. وليس ثمة شك فى أن الحواريين اعتقدوا أن ترتيب الجلوس فى (العشاء الأخير) هو الذى سيحكم مراتبهم المستقبلية فى مملكة الله. وهو افتراض ممكن جدًا لو أن الاتباع كانوا قد تأثروا فعلا باعتبارات المراتب التى كانت لها أهمية كبرى لدى الإيسينيين ومجتمع قمران.

ومرة أخرى فإننا نؤكد أن مفهوم الوجبة الجماعية العامة لدى مجتمع قمران ومجتمع الإيسينيين لم تكن لتستند إلى نفس خلفية العبادة أى الخلفية الدينية فى يوم محدد من الأسبوع على نحو ما كان عليه الحال عند المسيحيين فى (العشاء الربانى)

وإنه ليتضح من الأطروحات التى حللت وجوه الاتفاق ووجوه التنافر بين فكر وممارسات مجتمع قمران وفكر وممارسات المسيحيين الأوائل أن ثمة وجوه تشابه كثيرة بينهما ولكن أيضًا هناك وجوه تنافر واختلاف. لقد كانت الجماعة التى استوطنت غرب البحر الميت جماعة يهودية قلبا وقالبا مهتدية بهدى شريعة موسى ويحكمها القساوسة وكانت عقيدة أعضاء الجماعة متأثرة أو بمعنى أدق على ألفة ومعرفة بالثنوية الإيرانية التى كانت تمثل مروقا عن الفكر العبرى التقليدى الذى يؤمن بالأحدية. لقد كانت أخوة قمران مطلقة فى طبيعتها منقطعة ومكرسة للتنسك والزهد طول الحياة كما كان لديها التزام بنشاط عسكرى كوسيلة من وسائل بلوغ

غاية نشر العقيدة (المسيحية)؛ التى يعتنقونها. وعلى العكس من ذلك كانت الكنيسة المسيحية الباكرة المحاطة بعدد قليل من الاتباع تحت قيادة (الروح القدس) وكان عليها أن تحمل الرسالة إلى أمم حوض البحر الأبيض المتوسط وما وراءه. وكان العمل الضخم الذى قام به المسيح والتعاليم التى نشرها قد حققت أقصى توقع لشريعة موسى ونبوءته وهو فى حمل هذه الرسالة أسس المسيحية الوليدة برسالتها الفريدة فى التخلص من الخطيئة وذلك من خلال التطهر والإتحاد الروحى مع السيد المصلوب المرفوع إلى السماء. لقد كانت الجماعة التى مثلت المسيحية الباكرة لا تحمل خصائص الإطلاق ولأن المسيح أمر بأن يحمل الإنجيل ويوعظ به إلى جميع الأمم فإن أتباعه وحوارييه حملوا الرسالة بسرعة وتحملوا التحديات وارتفعوا إلى المستوى المطلوب. ولقد أكمل الروح القدس فى عيد الحصاد وحى الثالوث المقدس وكانت نتيجة ذلك أن الأحدية الموجودة فى العهد القديم قد حل محلها التثليث الموجود فى العهد الجديد. وفى مجال السلوك العملى اتبع الحواريون والأتباع سلوك المسيح وقوله: أحبوا أعداءكم، ومارسوا العمل الخيرى المسيحى والتسامح إزاء هؤلاء الذين اضطهدوهم.

وبينما كتابات طائفة قمران قد كشفت عن العديد من نقاط الالتقاء مع الوثائق التى خرجت من الدوائر الرسولية المسيحية فإن من المهم أن نعرف أن العقائد المسيحية السمحة الخيرة المتعلقة بتجسد الألوهية كان هدفها تخليص البشرية من خطاياها من خلال الصلب على الجمجمة (الموضع الذى صلب فيه المسيح) ونشاط الروح القدس كجزء عادى من التجربة المسيحية مما لا نجد له أثرًا فى مخطوطات قمران.

لقد حققت مخطوطات البحر الميت شيئًا أهم بكثير من إلقاء الضوء على بعض الأحداث التى وقعت فى خلفية المسيحية الباكرة للتاريخ والفكر. لقد رسخت تلك المخطوطات صورة ذهنية مقنعة عن الوسط الثقافى والدينى الذى خرج منه يوحنا المعمدان والمسيح عيسى، كما قدمت لنا تبصرًا شديد الوضوح بالأزمة التى واجهت اليهودية المعاصرة. ولقد غدا من الواضح وبالفعل أن العلاقة بين المسيحية الوليدة

والطوائف الدينية المعاصرة لها ذات الطبيعة الإيسينية، هى علاقة وثيقة وحميمة أكثر من تلك العلاقة بين المسيحية واليهودية الربابينية. ومن جهة ثانية فإننا يجب أن نحتاط ونكون على حذر عندما نزن ونقيم نقاط الالتقاء والتشابه بين تعاليم المسيحية وتعاليم نصوص قمران وخاصة عندما تتسم تلك النصوص الأخيرة بسمات إيسينية.

وبعيدًا عن الأختلافات والتباينات العقائدية سابقة الذكر كان اتجاه الإيسينية بعامة إزاء المسحية الباكرة اتجاها عدائيا على نحو ما قال به العديد من المصادر ومهما يكن من أمر فإن دراسة مخطوطات البحر الميت تكشف عن أن العلاقة بين اليهودية والمسيحية الوليدة يجب أن تخضع لمزيد من البحث والتقصى. وفى نفس الوقت فإن التباينات اللاهوتية الأساسية بين هؤلاء المؤمنين بشريعة موسى (القانون) وهؤلاء المؤمنين بالنعمة الإلهية (المسيحيين الأوائل) لابد هى الأخرى من أن تخضع للبحث والتمحيص أكثر وأكثر. لقد أتاحت مخطوطات قمران حافزا حيا لدراسة خصائص العقائد اللاهوتية فى المسيحية على ضوء خلفية تاريخية مؤكدة. وبينما تم إلقاء الضوء على كثير من أحداث العهد الجديد إلا أنه لم يكتشف حتى الآن أى مصدر يغير بأية طريقة العناصر الفريدة المميزة للمسيحية ولا أحدثت تغييرات أساسية فى العقيدة المسيحية التقليدية. لقد خضعت مخطوطات البحر الميت عبر ستة وستين عاما لدراسات مستفيضة أجنبية للأسف ــ دون دراسات عربية إسلامية جادة ـ مما خلق معها مجالاً جديدا من مجالات البحوث الإنسانية.

بعد هذه الخلفية يجمل بنا أن نجدول وجوه الاتفاق والتشابه من جهة ووجوه الاختلاف والتباين بين نصوص مخطوطات قمران ونصوص الكتابات المقدسة المسيحية من الجهة الثانية.

لقد أثارت العلاقة بين طائفة قمران والمسيحية الكثير من الجدل والنقاش وكتب الكثير والكثير عن جوانب ووجوه هذه العلاقة. ومن ثم فإننا يمكن أن نجدول العلاقة بين المجموعتين تحت ثلاث موضوعات رئيسية تتناول وجوه الاتفاق والتباين: الفكرية والمؤسسية والعقائدية. ويتضح من كتابات يوحنا وبولس أن

هناك عددًا كبيرًا من وجوه الاتفاق والالتقاء. وقد تم الكشف عن وجوه الاتفاق والاختلاف فى الجوانب الفكرية والعقائدية وربما كانت النتيجة العامة هى أنه هناك وجوه اتفاق قليلة بين الإناجيل الثلاثة الأولى من العهد الجديد ونصوص قمران فى الناحية الفكرية بالذات.

من الناحية المؤسسية التنظيمية. يمكننا القول بأن تنظيم الكنيسة الباكرة على ما يبدو فى (أعمال الرسل) ورسالة بولس يشبه فى بعض الوجوه تنظيم مجتمع قمران ففى أعمال الرسل هناك إشارات تتعلق بالملكية العامة والصلاة والتعاليم بين المسيحيين الأوائل وكلها تتشابه مع نصوص قمران كذلك فإن ثمة نقاط التقاء بينهما فى ممارسات (العزوبة والتبتل) والوجبات العامة وشعائر التعميد الموجودة فى الحالتين. ولكن هناك أيضا نقاط تباين بين الاثنين فى مجال التنظيم والإدارة بين الكنيسة الأولى ومجتمع قمران.

ومن ناحية العقيدة: هناك أيضًا نقاط تشابه والتقاء كثيرة بين عقائد مجتمع قمران وعقائد الكنيسة المسيحية الأولى الحقة. وكانت كلتا المجموعتين تؤمنان بالقضاء والقدر وفى وجود الأرواح الشريرة والأرواح الطيبة التى غالبًا ما تدخل فى صراع ومعارك فى الكون وداخل النفس البشرية الواحدة وفى الأفكار المسيحية. وكلتا المجموعتين تؤمنان بأنها شعب الله المختار وأنهما وجدا فى هذه الحياة ليتذوقا مقدما طعم السعادة والبركة التى ستلقياها فى الآخرة وكلتا الطائفتين آمنتا بالأمور الأخروية التى آمنت بها إسرائيل من قبل وكلتا الطائفتين كان يحكم كل منهما إثنا عشر زعيما قائدا. وكانت كلتا الطائفتين تؤمنان بوجود الملائكة.

ومع كل هذا فإنه فى المسيحية الباكرة تم المزج والخلط لكل هذه الملامح وغيرها فى بنية عقائدية جديدة ومزج هذه العناصر وتكاملها مع العقائد المركزية، ومن ثم خرج منها بشكل جديد ذلك أن الشخصية المسيحية عند المسلمين وضعت فى نفر أو شخص واحد بينما كان مفهوم المسيحية عند أهل قمران قد وضع فى عدة شخصيات. وكانت طائفة قمران تؤمن بالبعث والنشور وكانت تلك عقيدة راسخة لدى المسيحيين. وكانت كلتا المجموعتين تؤمنان بأن النفس البشرية آثمة

خاطئة بطبيعتها وبالنسبة للمسيحيين كان هناك إيمان بأن عيسى سوف يخلص البشرية من خطاياها وآثامها، بينما كان الأمر مختلفًا عند مجتمع قمران حيث يجب على كل شخص ان يطهر نفسه بنفسه.

وأكثر من هذا فإنه على الرغم من وجود روابط أكيدة بين أفكار وممارسات مجتمع قمران على نحو ما ورد فى مخطوطات البحر الميت وأفكار وممارسات الكنيسة الباكرة فإن كثيرا من هذه الأفكار والممارسات لم تكن جديدة لا من جانب طائفة قمران ولا من جانب الكنيسة الباكرة ولكنها كانت موجودة بشكل أو بآخر ومعمول بها لدى اليهود عامة فى القرن الأول قبل الميلاد.. ومن الثابت الأكيد الآن أن طائفة قمران صاحبة مخطوطات البحر الميت كانت أبعد ما تكون عن ديناميكية تبليغ رسالتها للأمم الأخرى على نحو ما كانت تأمل وكانت فى انتظار المسيح الذى سيحمل عنها ذلك العبء الذى قامت به الكنيسة خير قيام كنيسة العهد الجديد وكما أشرت لماما من قبل فإن أفكار طائفة قمران وتغييراتها قد تسربت إلى الكنيسة التى استثمرتها بمعان ومحتويات جديدة وأكثر عمقًا.

وصفوة القول فى هذه الجزئية أن الأهمية الكلية الشاملة لمخطوطات البحر الميت بالنسبة إلى دراسات ودارسى العهد الجديد أنها تنير لنا الطريق وتضيف إلى معرفتنا وفهمنا الشيء الكثير فيما يتعلق بفترة ما قبل المسيحية مباشرة وتقدم لنا تبصرًا أدق وأعمق لحياة وعقيدة إحدى الطوائف الدينية التى عاشت فى القرن الثانى والأول قبل الميلاد وامتد بها الزمن إلى القرن الأول الميلادى بعد ظهور المسيح سبعين عامًا على الأقل. لقد أمدتنا مخطوطات البحر الميت بالظروف والبيئة التى ولدت فيها المسيحية وتكشف لنا عن جذور بعض الأفكار وخصائصها المتفردة والمتميزة.

لقد ظهرت كما ألمحت من قبل، ومع مجيء المسيح شخصية دينية هامة يعتقد أنه كانت لها صلات بمجتمع قمران ألا وهو يوحنا المعمدان. ذلك أنه فى نحو سنة ٢٧م وطبقًا لما جاء فى إنجيل متى قام يوحنا المعمدان بالذهاب إلى البرية ليقيم فيها، وعاش كما ألمعت فيما وراء نهر الأردن على بعد ١٠ – ١٢ ميل من مركز مجتمع قمران ومن ثم بات واضحا أنه كان على دراية ومعرفة بذلك المجتمع ومكتبته.

وتذكر بعض المصادر الثقاة أن الطائفة قد أثرت على وفى المسيحية من خلال يوحنا المعمدان. ويذكر لنا يوحنا المعمدان أنه ظل فى البرية حتى يوم ظهوره لإسرائيل ويقص علينا أيضًا أنه ذهب ليتعمد فى نهر الأردن. وقال لسائليه أنه الصوت الذى يصرخ فى البرية ولكن ليس من الضرورى أن تكون برية يوحنا المعمدان وبرية طائفة قمران واحدة. ولابد لنا من أن نعرف أنه كانت هناك اختلافات وتباينات بين حياة التنسك والزهد لدى الطائفة ولدى يوحنا المعمدان. ذلك أن نصوص طائفة قمران لا تذكر شيئًا عن أكل العسل مع الجراد. وكان الامتناع عن شرب النبيذ والمشروبات القوية من خصائص الطوائف الباكرة مثل النازاريتين والريشابيين شأنهم فى ذلك شأن طائفة قمران. وكان التنظيم الدقيق لمجتمع قمران وتزمته مختلفا عن الحرية التى تمتع بها فى الحياة أتباع يوحنا المعمدان. وكان يوحنا ينخرط وسط الجموع العادية من البشر بينما أعضاء مجتمع قمران كانوا معزولين عن الناس تماما ويعيشون لأنفسهم. وكان يوحنا المعمدان يتحدث عن تعميدة واحدة، بينما مجمع الإيسينيين يمارسون شعيرة الاغتسال والوضوء بصفة مستمرة.

ويرى كثير من الباحثين أن كتابات يوحنا المعمدان أقرب ما تكون إلى كتابات قمران من كثير من كتابات العهد الجديد، فالإنجيل الرابع "إنجيل يوحنا" يتضمن جملاً وتعبيرات موجودة بنصها فى مخطوطات البحر الميت. كما أن طريقة التفكير والأسلوب الأدبى الذى كتب به إنجيل يوحنا ورسائله تشبه إلى أبعد حد نصوص قمران.

ويلاحظ الفقهاء أن مبادئ الثنوية وكذلك تضاد الضوء والعتمة موجودة فى كتابات كلا الطرفين. ففى كتابات يوحنا فإن ضوء العالم قد ظهر وأن النصر على الظلام قد حل. ويتفق الطرفان: يوحنا المعمدان وطائفة قمران على أنه بدون الله ما كان هذا الكون قد خلق وبدون الله لا شيء يتم أو يحدث ويقع. والنص على ذلك موجود حرفيًا بين الطرفين.

وقد نصت كتابات قمران على أن الله خلق الروحين: النور والظلام.

وربما اختلف يوحنا المعمدان وطائفة قمران حول مسألة القضاء والقدر (المسبق

فى علم الله) حيث أن يوحنا المعمدان يركز على الإيمان كأداة يقرر بها المرء قدره الخاص؛ بينما كانت القدرية أقوى نغمة وترددا فى فكر طائفة قمران فالمرء لا إرادة له ولا حيلة له فى قدره ومصيره وأن إرادة الله وقدره هو النافذ وما على الإنسان إلا أن يرضى بقضاء الله وقدره ويطلب رحمته ونعمته.

وكان مجئ المسيح بالنسبة لطائفة قمران وشيكة الوقوع، بينما بالنسبة ليوحنا المعمدان فإن "الزيارة" قد وقعت بالفعل فقد كان المسيح هناك وكانت الروح القدس بعيدة، وكانت مهمة يوحنا أن تسم عيسى على أنه تحقيق للحدوث المتوقع.

وكانت هناك نقاط التقاء كثيرة قوية بين يوحنا المعمدان وطائفة قمران؛ فمن الكلمات المفتاحية فى الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) وكتابات قمران كلمة (الحق). وفى كلتا الحالتين نجد إيمانًا راسخًا بمفهوم الحياة الأبدية والخلود بعد الموت وكذلك البعث والنشور.

ويرى بعض الباحثين الضالعين فى العلم أن من المحتمل جدا أن تكون ثمة علاقة بين المسيح عيسى وبين طائفة قمران، ذلك أن مقر الطائفة كان قريبًا من الأماكن التى يتردد عليها المسيح ومن بينها: جريشو، بيت لحم، بيت المقدس؛ بل ويغالى البعض فيقول بأن السنوات المجهولة لنا فى حياة المسيح قضاها هناك مع طائفة قمران وعلى هذا الرأى إدموند ويلسون وهى سنوات (١٢-٣٠) من عمر المسيح ولكن ليس هناك ما يشير إلى ذلك فى نصوص قمران. وهناك تضاد وتناقض واضح بين عيسى و(معلم الاستقامة) والمفهوم القمرانى للمسيح. ففى العهد الجديد هناك إشارات إلى أنه كانت للمسيح حياة سابقة ووجود سابق قبل حياته على الأرض. أما فى نصوص قمران فليست هناك أية إشارة تدل على وجود سابق لـ (معلم الاستقامة) أو (المسيح). وليس هناك أية إشارة إلى الموت الإعجازى لمعلم الاستقامة على نحو الميتة التى ماتها المسيح. ففى العهد الجديد تم تصوير المسيح عيسى على أنه يعانى ويقاسى بسبب خطايا الآخرين ويتألم لها وليس هناك فى كتابات قمران ما يشير إلى معاناة (معلم الاستقامة) بسبب خطايا وآثام الآخرين.

ويبدو موت (معلم الاستقامة) غامضًا فى وثائق قمران بينما ترددت طريقة موت عيسى وبعثه ونشوره عدة مرات فى العهد الجديد.

ولسوف نصادف توقعات متباينة بين ما ورد فى العهد الجديد وكتابات قمران حول طبيعة المسيح ففى كتابات قمران هناك مسيحان أو ثلاثة يأتون معًا. وإذا افترض أن (معلم الاستقامة) سوف يأتى ثانية فإنه سيكون فقط واحدًا من الاثنين أو الثلاثة وليس المسيح نفسه. أما فى الكتاب المقدس فإن المسيح عيسى سوف يأتى ثانية باعتباره المسيح الوحيد وبمجيئه سوف تتوج كل آمال المسيحيين الأوائل. ولئن كان المسيح عيسى يستخدم دائما عبارة: (أنا ابن الرجل) للإشارة إلى نفسه فإننا لا نجد لهذه العبارة أثرًا أبدا فى كتابات قمران كوصف للمسيح.

ولا نجد فى كتابات قمران أية أشارة على أن (رجل الاستقامة) كان يعتبر إيضا بأى حال من الأحوال وبأى معنى. ولم يطلق عليه أبدًا لقب المسيح ابن الرجل أو ابن الله ولم يطلق عليه ابدًا لفظ الرب. وفى كتابات قمران نجد بعض النصوص القليلة نسبيًا تشير إلى (معلم الاستقامة) كما لو كانت فعلا تتحدث عن المسيحية البدائية ولكن دون تسمية المسيح.

والحقيقة أن معلوماتنا حول عيسى أكثر بكثير مما نعرفه عن (معلم الإستقامة) ورغم ذلك فإننا نشعر أن الخطوط المشتركة بينهما قليلة فقد كان أعضاء طائفة قمران عبادا متنسكين زهادا بينما لم يكن المسيح كذلك. وبينما كانت طائفة قمران مجتمعا دينيا معزولا عن الناس كان المسيح يعيش وسط الناس العاديين. وكان عيسى أساسًا فى الناصرة بفلسطين ولم يكن هناك وجه شبه بين حواريه وأنصاره بالتنظيم الذى كان عليه مجتمع قمران.

ولقد كان مجتمع قمران مجتمعًا لوائحيًا صارمًا يتبع القواعد الموضوعة اتباعًا حرفيًا، بينما كان عيسى يستند إلى مجرد المبادئ والأسس السابقة وعلى سبيل المثال كان عيسى يقول عن السبوت بأن السبوت وضع من أجل الرجل، وليس الرجل من أجل السبوت، وكانت طائفة قمران ترى غير ذلك ولم توافقه.

وكانت طائفة قمران تضع أهمية خاصة وتركيزًا على الشعائر وتركز على الفصول والأوقات، وكانت تعلى من قدر وقيمة القساوسة وتجل منازلهم وتقيم الطقوس والشعائر. ولم نصادف فى تعاليم المسيح شيئًا من هذا. وربما كانت نقطة الالتقاء الأساسية بين يسوع المسيح والطائفة تكمن فى أنهما كانا يؤمنان بالصراع الكونى الشامل بين الخير والشر.

وهناك نقاط التقاء أخرى بين كتابات العهد الجديد وكتابات قمران حيث يرى بعض الباحثين أن هاك علاقة ما بين أعمال الرسل والرسالات إلى اليهود من جهة ومخطوطات البحر الميت من جهة ثانية وحيث هناك وجه شبه أكبر بين رسالة المسيح إلى اليهود والعهد القديم أكبر من وجه الشبه بينها وبين شروح قمران وإنجيل متى نفسه. ويرى بعض الباحثين أن هناك تعبيرات عديدة فى رسائل جيمس ليست إلا صدى للغة مخطوطات البحر الميت وإن لم تكن هناك صلة مباشرة بينهما. وهناك تشابه فى بعض الصور والأفكار بين كتابات قمران وأسفار العهد الجديد.

وهناك نقاط التقاء بين وحى يوحنا من جهة وبين ما جاء فى نصوص قمران من جهة ثانية فهناك فقرات بأكملها مقتبسة أو انعكست فى وحى يوحنا وفى دليل النظام وفى مخطوطة دمشق. ولعل النموذج الصارخ على الالتقاء الحرفى يكمن فى رمزية المرأة التى تضع طفلاً فى وحى يوحنا الذى يشبه تمامًا ما جاء فى مخطوطة قمران (شرح حبقوق) والذى يدل على ميلاد المسيح. وموضوع الحرب فى وحى يوحنا والذى يحارب فيه الملك ميكائيل والملائكة الآخرين مع الجنود فيه يقينا علاقة ولو من بعيد مع ما جاء فى مخطوطة الحرب وقلما يستقى المعلومات من أفكار العهد القديم والمتعلقة بالحرب من أجل الشئون الأخروية، رغم أنه ليست هناك أية إشارات أو إيحاءات فى وحى يوحنا بأن القديسين على الأرض يجب أن يكونوا مسلحين فى مواجهة جسدية مع أبناء الظلام. وسوف نلاحظ أن كلا المصدرين يعتمدان على مادة مستقاة من سفر الرؤيا ومصادر خارج الكتابات المقدسة. وكلا المصدرين تحدث عن موسم يسمح فيه الله للشر أن ينطلق حرًا يعيث فى الأرض فسادا وموسم يدمر فيه الله سبحانه الشر تدميرا كاملا.

وعندما نحاول جدولة وجوه الالتقاء ووجوه الاختلاف بين المسيحية وحياة طائفة قمران وعقائدها بصفة عامة فلسوف نلاحظ بعض جوانب الأتفاق وعناصر الالتقاء بين تنظيم الجماعة وإدارتها والكنيسة المسيحية الأولى وحيث يرى الكثيرون أن الوجبة الجماعية العامة تشبه العشاء الربانى والعشاء الأخير وقد أكد على ذلك العديد من المصادر الثقاة وعلى نحو ما رأينا سابقًا وكلا الطائفتين كانتا تجتمعان فى اجتماعات عامة ويتحدث المتحدثون بالدور طبقا لمراتبهم الدينية. وكانت كلتا الجماعتين منظمتين فى مجموعات ورتب دينية. ويرى الباحثون أن ثمة اتفاقا على سلطة القادة والزعماء الذين يترأسون المجموعات فى طائفة قمران وبين سلطة الأساقفة فى المسيحية بعد ذلك. وثمة اتفاق بين الجماعتين على مفهوم الآخرة الذى قال به إسرائيل. كذلك كانت كل طائفة من الطائفتين يحكمها إثنا عشر زعيما وحيث قام المسيح بتكوين مجموعة من إثنى عشر رسولاً وكما اسلفت كان هناك فى قمران مجلس مكون من إثنى عشر عضوا وثلاثة قساوسة. ونحن لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت سلطة القساوسة الثلاثة أعلى من الاثنى عشر عضوًا ولو كان ذلك كذلك فإن وجه الشبه سيكون صارخًا لأنه كان بين الرسل حواريى المسيح ثلاثة متميزون هم: بطرس، وجيمس ويوحنا.

وهناك جوانب التقاء أخرى بين الاثنين نجدول بعضها على النحو الآتى:

١- تحملت كل من الطائفتين أو بمعنى أدق تعرضت لاحتمالات الاضطهاد والتعذيب.

٢- كلا الطائفتين كانتا تقدر أهمية سفر عيساياه والكتابات المتعلقة بالشريعة فى العبرية وخاصة المزامير وسفر تثنية الاشتراع.

٣- كلتا الجماعتين كانتا تعتقدان أنهما تعيشان فى الأيام الأخيرة للعالم وكلتاهما كانتا تعتقدان أنها وحدها (شعب الله المختار).

٤- كلتا الطائفتين كانتا تعتقدان أن الإنسان خطأً آثم وأن خلاصه لن يأتى إلا من خلال لطف الله ونعمته فقط.

٥- كلتا الطائفتين كانتا تفسران الشريعة (القانون) من خلال وحى جديد مباشر.

٦- كلتا الطائفتين كانتا تعتقدان أن الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة تتصارعان فى هذا الكون وأيضًا داخل النفس البشرية الواحدة. وكانت كل من الطائفتين تؤمنان أنهما تتشاركان فى حياة الملائكة.

٧- كانت كل من الطائفتين لديها إحساس شخصى بأنها تكرس لله على نحو ما نصادفه فى ترانيم تقديم الشكر التى عرضنا لها سابقا فى كتابات طائفة قمران.

٨- كانت كل من الطائفتين تؤمنان إيمانا مطلقا فى قدرة الله المطلقة، وحيث كانت طائفة قمران تعتقد فى أن الله خالق كل شيء وهو المانح لكل النعم وهو الذى يسير أقدار الخلق، والله هو مركز الحياة والزمن، وفى الإنجيل الرابع نجد نفس المفاهيم حيث يقرر إنجيل يوحنا أن كلمة الله هى خالقة كل شيء (كن فيكون) وبدون هذه الكلمة لن يخلق شيء. ولقد كان المسيحيون الأوائل والإيسينيون متعمقين الكتابات المقدسة ومن ثم أكدا على قدرة الله المطلقة وقوته التى لا حدود لها. وليس ثمة شك فى أن التعبيرات الخاصة والمتعلقة بقدرة الله كما ظهرت عند طائفة قمران والمسيحيين الأوائل هى مجرد تطويرات وإعادة صياغة للأفكار الرئيسية الكبرى التى وردت فى دين العهد القديم، ولا مندوحة عن القول بأن الأثنين قد استقيا من مصدر واحد. وربما لم يعتمد أحدهما على الآخر.

وهناك وجوه التقاء لا تقبل الجدل ويمكن التركيز عليها حيث يرى بعض الباحثين أنه لا ينبغى الافتراض بأن الكنيسة الباكرة قد استعارت أو أقتبست أفكارًا ومادة من طائفة قمران بسبب بسيط وهو أن كلتا الطائفتين تعكسان أفكارًا كانت مطروحة على الساحة آنذاك ولبعض الوقت. إذ أن بعض الأفكار المتشابهة سطحية وأخرى تتضاءل بعد الدراسة المتأنية فى كلتا الكتابتين، كما أن بعض الأفكار والممارسات التى تبدو متشابهة ويبدو أن المسيحية قد استعارتها واقتبستها من طائفة قمران غالبا ما كانت تتغير مع مرور الوقت وفى سياق العقيدة المسيحية وإعادة

تنظيمها. وأعتقد كما يعتقد الكثيرون معى أن المادة التى استعارتها المسيحية إن هى إلا تصوير للخلفية اليهودية للمسيحية بحيث يمكن اعتبار الكتاب المقدس (العهد الجديد) امتدادًا معدلاً للعهد القديم. ومن ثم فإن من الطبيعى أن تكون هناك اختلافات بل وتصحيحات بين أفكار الطائفة وأفكار المسيحيين الأوائل. وأية مقارنة عادلة ومنصفة بين يهودية القرن الأول الميلادى والمسيحية الوليدة سيجد بينهما نقاط التقاء كثيرة حيث انبثقت المسيحية من قلب اليهودية. ولا أعتقد أن هناك دليلاً ماديًا ملموسًا أو نقليًا مقبولاً يقول بأن يوحنا المعمدان أو بولس أو عيسى المسيح كانوا فى يوم من الأيام أعضاء فى طائفة قمران أو أنهم تأثروا بأفكار قمران بأكثر مما تأثروا بالطوائف اليهودية الأخرى.

أما التناقضات بين أفكار الطائفة والمسيحية فهى عديدة وحيث أن الكنيسة ومجتمع قمران قد عاشا فى وهم أو توقع أن نهاية العالم قريبة وشيكة وأنهم سوف يدعون إلى ملكوت الله بقوة منه. ومع ذلك فإن طائفة قمران لم تكن على يقين متى سيأتى الفجر أو الزمن الجديد بينما القديس بولس وآخرون فى الكنيسة الباكرة كانوا يتوقعون أن أمجاد المملكة ستأتى وستتحقق فى أية لحظة. ولقد توقع المسيحيون أن يأتى عيسى الذى صعد من الأرض ويعود فى (سحب من المجد) ويؤسس إسرائيل الجديدة وللأبد. وكانت طائفة قمران تنتظر مجيء المسيح والذى يحقق مجيؤه نفس النتيجة ولكن توقعاتهم لم تحدد هيئة معينة للشخص الذى يعيش بينهم. وليست هناك قرينة محددة يمكن الامساك بها تدل على أن (معلم الاستقامة) هو المسيح الذى قدم للموت وصعد إلى السماء وسوف يعود فى أمجاده. وكانت طائفة قمران تنتظر المجيء الأول للمسيح مع حلول العصر الجديد. ويبدو أنه كان هناك تيار من التوقعات لدى الكثير من الطوائف الدينية فى ذلك الزمان سواء تلك المسيحية أو اليهودية. وهنا مرة أخرى نجد أن طائفة قمران والكنيسة الباكرة كلتيهما كانتا قطعتين فى نمط ذلك الزمان.

وثمة اختلاف فى مفهوم شخصية المسيح فالمسيح بالنسبة للمسيحيين شخص

واحد بينما هو بالنسبة لمجتمع قمران هو متضمن فى شخصين أو ثلاثة أشخاص. وكان أهل قمران ينتظرون من المسيح أن يرمم ويصلح من مملكة أسرائيل السياسية. وقد رفض عيسى هذه الفكرة عن المسيح ورفض فكرة الحرب لاصلاح مملكة إسرائيل. وفى التراث اليهودى فإن المسيح ليس كائنا إلهيا: وربما كان أنقى البشر أو المختار المبعوث لأمته.

وكانت طائفة قمران تأمل فى البعث والنشور بينما كان المسيحيون يؤمنون بالبعث والنشور كحقيقة راسخة ثابتة. وكانت وثائق البحر الميت الصادرة عن طائفة قمران تحجب التواريخ والأشخاص، بينما الأناجيل تتحدث عنهم بوضوح قدر الإمكان.

ولقد كان الخلاص عن طريق الإيمان بـ (معلم الإستقامة) له مفهوم ومعنى مختلف عن معنى الخلاص عن طريق الإيمان بعيسى المسيح. فقد كان معلم الاستقامة يعلم أن الخلاص إنما يأتى من الانصياع للشريعة (القانون) التى وضعتها الجماعة؛ وكانت هذه هى سبل الخلاص عند الإيسينيين. وكان الإيمان بمعلم الإستقامة يعنى القبول بما تصدى له والانصياع للمبادئ التى وضعها باعتبارها الوسائل الحقة. أما بالنسبة للمسيحيين فإن الخلاص يكون عن طريق الإيمان بالسيد المبعوث من الله الذى أرسله ليخلص العالم من الخطيئة ولقد وضع عيسى قاعدة عريضة من الدوافع والحوافز للحياة الصالحة بدلاً من التفسير الخاص للشريعة (القانون) وكان الخلاص بالنسبة لـ بولس إنما يتأتى عندما يضع المرء ثقته فى العمل الذى أنجزه المسيح فى "حادث الموت ـ البعث".

ومن الفروق أيضًا أن طائفة قمران كانت تُعلِّم كراهية وبغض من هم خارج الطائفة، بينما كانت الرسالة الأساسية والخاصة للمسيحية هى الحب لكل الجنس البشرى. وكانت الرؤية العالمية غريبة وأجنبية على الطائفة، بينما على الجانب الآخر كان يطلق على المسيح (منقذ العالم).

ولقد كانت هناك فروق ذات بال فى أسلوب المعيشة والحياة لدى طائفة

قمران بالمقارنة مع أسلوب الحياة والمعيشة لدى عيسى ويوحنا والأتباع، نجدولها فيما يلى:

١ - كانت طائفة قمران تبعد عن الناس وتجنح للعزلة على العكس من تركيز عيسى وتأكيده على الحياة وسط جموع الناس.

٢ - كانت شعيرة التعميد لدى الطائفة عملاً يوميًا يؤديها الفرد بنفسه وكان الهدف منها الحفاظ على التطهر البدنى والنفسى باعتباره جزءًا من العبادة؛ بينما كان التطهر البدنى عملاً شخصيًا لا دخل له بالشعائر ومبادرة خاصة فردية فى المسيحية.

٣- كان هناك فى مجتمع قمران تأكيد على أهمية القساوسة وطقوسهم، بينما لم يكن الأمر كذلك فى العهد الجديد.

٤ - كان ثمة تركيز لدى طائفة قمران واتباع أعمى لحرفية ما جاء فى الشريعة (القانون) بينما كان تركيز عيسى على أولوية عمل الخير وليس على التمسك بما جاء فى القانون.

٥ - كانت طائفة قمران تؤكد على النقاء الحرفى وخاصة ذلك المتعلق بالواجبات، على العكس مما كان يفعله عيسى من اقتسام الخبز مع العامة والخطائين والآثمين وتلك المتعلقة بقصة أكل المسيح فى منزل سيمون الفارسى ومنزل ماجدالين التى تقترب منه. وذلك على العكس من طائفة قمران التى لم تكن تسمح بأن ينضم إليها فى الوجبة الجماعية إلا من أجتاز فترة الاختبارات والتقييم بعد سنتين على الأقل. وفى كل الأحوال كانت تسبق الوجبة عملية وضوء واغتسال ولبس الملابس البيضاء ودعاء دينى تبدأ به الوجبة وتنتهى به.

وختامًا فإن من الواضح أن التراث والفكر الكامن خلف الأناجيل والرسائل له علاقة بفكر وتراث طائفة قمران ولكنه فكر أخذ وأعيدت صياغته وتفسيره على ضوء عيسى المسيح. وحقيقة كانت هناك روابط بين أفكار وممارسات الطائفة صاحبة مخطوطات البحر الميت والكنيسة الباكرة ولكن المعلوم أن المسيحية استقت أفكارًا وممارسات كانت قائمة وجارية فى تلك الفترة بصفة عامة ولا تخص طائفة

بعينها. وثمة إجماع على أن الطائفة لم تكن نشيطة وديناميكية فى نشر دعوتها ومبادئها بقدر ما كانت كنيسة العهد الجديد. وربما تكون تعبيرات الطائفة قد استعيرت وأقتبست ولكنها استثمرت بطريقة جديدة وبمعان ومحتويات أعمق. وكما ذكرت من قبل فإن القيمة الحقيقية لمخطوطات قمران بالنسبة لدراسات العهد الجديد تكمن فى أنها تضيف إلى معرفتنا وفهمنا أبعادًا جديدة ورؤى جديدة عن الفترة التى سبقت ظهور المسيحية مباشرة وتقدم لنا تبصرًا أدق فى حياة وعقائد إحدى الطوائف الدينية فى تلك الحقبة.

* * *

obeikandl.com